

المُناجاة

لأبي محمد عبد الله بن محمد الهَبْطِيّ الطَّنْجِيّ

(ت 963هـ / 1555م)

MONOLOGUES

By Abu Muhammad Abdullah bin Muhammad al-Habti al-Tanji

(D.963 AH / 1555 CE)

تقديم وضبط وتصحيح

د. خالد زَهري*

كلية أصول الدين - جامعة عبد المالك السعدي - تطوان / المغرب.

jazouli1969@gmail.com

تاريخ القبول: 2018 / 09 / 13

تاريخ الاستلام: 2018 / 08 / 15

ملخص

تُعَدُّ رسالة "المناجاة" لأبي محمد عبد الله بن محمد الهبطياطنجي (ت. 963 هـ / 1555 م) من أهم الرسائل التي تقرر عمق التداخل بين المذهب الأشعري والتصوف الجنيدي الأخلاقي عند المغاربة، وأهم ملامح هذا التداخل فيها أن صاحبها انفرد في تعبيره عن الشوق إلى حضرة القدس بالتوسُّل بالعقائد الأشعرية، لتكون طريقاً للوصول إلى حال المشاهدة، كما أنها طريق لمعرفة الله تعالى لذاته وصفاته وأفعاله. هذا، وإن النظر في مضمونها يُفضي إلى الوقوف على بصمات الغزالي وابن الفارض بوضوح. ومن أهم ما تمتاز به هذه الرسالة أنها غير معروفة، ولا ذكر لها في المصادر، كما لا تعرف لها نسخة أخرى غير النسخة التي اعتمدنا عليها.

الكلمات المفتاحية: المناجاة، المخطوط، الأثر، الإمام، الدين.

Abstract

The message "Munajat" by Abu Muhammad Abdullah bin Muhammad al-Habti al-Tanji (d. 963 AH / 1555 CE) is one of the most important messages into the entrance to the Ash'ari portal and the ethical Sufism of Junaidi among Moroccans, and the most important features of this overlap in it is that its owner is alone in expressing longing To the dawn of Jerusalem, by invoking Ash'ari doctrines, as a way to reach the state of witness, as they can serve as pleasures for himself, his qualities and his actions.

This, and looking at its content leads to clearly identifying the fingerprints of Al-Ghazali and Ibn Al-Farid. Among the most important things mentioned in the titles of this letter is a return to the sources.

Key words: The Munajat, the manuscript, the impact, the imam, religion.

مقدمة

الكلام في هذه المقدمة مَنُوطٌ بِرِسْمِثَلَاثَةِ مَطَالِبٍ: الأول، يَسْلُطُ الضَوْءَ عَلَى مضمون "مناجاة" أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَبْطِيِّ الطَّنْجِيّ (ت. 963 هـ / 1555 م)¹، والثاني، يُرْخِي العنان لهذا المضمون، كي يبرز بعض ملامح تأثره بحجة الإسلام أَبِي حَامِدٍ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِي الطُّوسِي (ت. 505 هـ / 1111 م) وسلطان العاشقين أَبِي حَفْصٍ شَرْفِ الدِّينِ عَمْرِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ الْفَارُضِ الْحَمَوِيِّ ثُمَّ الْمَصْرِيِّ (ت. 632 هـ / 1235 م)، والثالث، يتولى وصف النسخة المخطوطة المعتمدة.

المطلب الأول: مضمون "المناجاة"

إن القارئ لهذه "المناجاة" يدرك ما نعت به مترجمو عبد الله الهبطي من أنه "كان الغالب عليه الشوق إلى حضرة القدس"²، كما أن صيغة "قلتُ ... قال..." التي رسم بها حوارَه الإلهي تؤكد انبناء "طريقته الخاصة مع خواص أصحابه على المشاهدة والعلوم اللَّدُنِّيَّة"³. وهذا ما تلوح به "مناجاة" الهبطي، فَمَهْيَعُهُ أن حال المشاهدة يكون "على مقتضى العلم والعمل"، وهي تتراوح لدى أهل المشاهدة بين التنزيه، والتعظيم، والتمجيد، "فإن الحال على حسب الشهود، والشهود على حسب التجلي، والتجلي على مقتضى المشيئة".

ويمكن أن نُعَدَّ هذا بياناً لتعريف الغزالي للعلم اللدني، وهو قوله: "والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس والباري، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب، يقع على قلب صاف فارغ لطيف"⁴. وغياب هذه الوسطة تتحقّق في كلام الهبطي من خلال صيغة "قلتُ ... قال..."، فلا واسطة بين المناجي والمناجى.

وبما أن العلم اللَّدُنِّي لا يعتمد على التحصيل؛ بل هو هبة من الله تعالى لأهل الولاية؛ فإن عبد الله الهبطي يثير مسألة الطاعة، ويشير إلى أن العناية الإلهية لا تقدّر الطاعة بميزان الكثرة والكم: "فلا تحقرن شيئاً من طاعتي، ولعله هو بابلك إلي، فيكون هو الفاضل في حقك. فافهم سر تصريفي، وعجائب تكليفي"، وتقريب ذلك بما ذكره أبو حامد الغزالي، وهو أن "الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل، وتعب التعليم، فيتعلمون قليلاً، ويعلمون كثيراً، ويتعبون يسيراً، ويستريحون طويلاً"⁵.

هذا، وإن الغزالي يرى أن الله تعالى يرفع الحجاب بين نفس من نال العلم اللَّدُنِّي وبين اللوح، فتتجلي له أسرار بعض المكنونات، وينال حقيقة الحكمة⁶.

ومؤدّى هذا أن عبد الله الهبطي يُعَدُّ مناجاتِهِ مِنْ قَبِيلِ الحكمة الغيبية، التي نالها بالعلم اللدني، الموهوب له من حضرة القدس، ولوائح ذلك يُجَوِّدُ بِهَا قَوْلُهُ: "فشاهدت سريان سر الصفات الأزلية في جميع الموجودات، وشاهدت سنا الحضرة القدسية، وشمول الإحاطة القيومية".

وقد ذهب بنا النظر والفهم إلى أن مناجاته من ثمار فهمه العميق للهيللة، وتحليله الوافي لكلمة التوحيد مبنى ومعنى، فقد قال في رسالة له في الهيللة: "الحمد لله الذي جعل كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله خزانة لجميع العلوم الظاهرة، والباطنة، وباطنة الباطنة"⁷، وهو يُعَدُّ هذه "المناجاة" من عطاء هذه الخزانة، فقد قال في صدرها: "فلما هب عليّ نسيمٌ من خزانة الفضل". وهو؛ لهذه العلة؛ يؤكد وجوب التفكير في كلمة الإخلاص، واستحضار معانيها لدى ذكرها⁸.

كما تلوح "المناجاة" بمعالم المنهج التعليمي لدى عبد الله الهبطي، مما يجعلها منسجمة مع الإطار العام الذي يضبط سائر مصنفاته.

وأبرز هذه المعالم مراعاة تفاوت العقول⁹، فقد جاء فيها: "يا عبدي، خلقت الخلق على درجات متفاوتة لا يعلمها غيري، ورضيت من هذا غير ما رضيت من هذا، ووصلت هذا بغير ما وصلت به هذا، وتعرفت لهذا بغير ما تعرفت به لهذا، وظهرت لهذا بغير ما ظهرت به لهذا".

ومن هذا المنطلق، كانت المشاهدة والعلوم الدنية وحضرة القدس مفاهيم لا يتحقق بها صاحبها، إلا إذا كان في مقام الإحسان، ولا يجوز تداولها، إلا بين أهل العرفان، كما يدل على ذلك استعماله لكلمة "الإخوان".

ويقول في مناجاته: "وسبيل حضرتي شرع صافي، وشيخ وافي"، فاتخاذ الشيخ من أهم القواعد الصوفية، ومن دعائم التربية الروحية، من منطلق أن العلم يؤخذ من أفواه الرجال ويُنظر في سلوكهم. ولا ينبغي أن ننسى أن عبد الله الهبطي كان شيخا صوفيا مريبا، وتخرج من مدرسته الصوفية كثيرٌ من الرجال المتحققين بالتوحيد، والعارفين بالله¹⁰.

ويصفه مترجموه بأنه "كان أحرص الناس على تعليم عباد الله، ويأمر من يلقي بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والخدام والإماء"¹¹، ويشدد في رسائله على وجوب الدعوة إلى التوحيد الخالص، وعلى بناء طاعة الله على الفهم الصحيح لكلمة الإخلاص، والأخذ بمقتضاها، علما وعملا. ولا غرو أن يكون هذا شعورا بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، باعتباره شيخا صوفيا مُربِّيا يتقلَّب في بيئة فاسدة علما وعملا¹²، فقد قالوا في وصف موطنه: "كانت تلك الجبال التي كان بها -وهي: جبال غمارة - كثيرة الجهل، وشرب الخمر، وغير ذلك من المناكر، فبذل الوسع في تعليم التوحيد، وتقرير العقائد، وتغيير المناكر، وخاطب في ذلك ولاة البلاد، وأشياخ القبائل، ومن له كلمة مسموعة فيهم، ووعظ وذكر، وبلغ الغاية في الاجتهاد في ذلك، فنفع الله به نفعا عظيما، وهدى به عالما لا يُحصى، وحسن حال البلاد وأهلها"¹³.

إنه تحقق بالمسؤولية التي وردت عليه من حضرة القدس: "يا عبدي، أحبُّ البقاع إليَّ بقاع الدنيا التي أطاع فيها، وأحب البقاع إليك بقاع الآخرة التي أنشُرَ رحمتي فيها".

إنها مسؤولية الإصلاح، من أجل تحويل بقعة فاسدة إلى بقعة محبوبة إلى الله، رغبة في رحمة تنشر عليه في بقعة من بقاع الجنة.

المطلب الثاني: ملامح الغزالي وابن فارض في "المناجاة"

ذكرنا شذرات من كلام الغزالي حول العلم اللدني، وكشفنا عن صلة الشَّيْبَةِ بينها وبين كلام عبد الله الهبطي. ولا غَرْوَ في ذلك، فقد كان يُلقَّب بغزالي زمانه¹⁴، وما كان له أن يحوز هذا اللقب، إلا إذا كان هاضماً لكلام الغزالي، ومتحققاً به¹⁵. ومهما يكن من أمر، فإن صلة الشبه المشار إليها تقف شاهدة على تأثر الرجل بأبي حامد، وتُضَيِّفُ إليها شواهد أخرى، وهي:

وَصَفَّ العلماءُ الهبطيُّ بأنه يذهب في شوقه إلى حضرة القدس "مذهب ابن الفارض، ويستحسن كلامه، ولا سيَّما تائيته الكبرى، فإنها كانت هَجِيرَه"¹⁶.

وهذا صحيح، وله شواهد من "المناجاة"، فملاح التائية الكبرى¹⁷ بارزة فيها، منها:

■ قال ابن الفارض:

فأوهمت صحي أن شرب شراهم به سر سري في انتشائي بنظرة¹⁸.

وقال الهبطي: "... فنظرتُ فإذا ذلك كذلك ... فاستأذنته أن أترجم عن شيء من ذلك للإخوان...".

■ قال ابن الفارض:

وما بين شوق واشتياق فني في تَوَلَّى بحظرٍ أو تَجَلَّى بحضرة¹⁹.

وقال الهبطي: "ومناجاة خاصة الخاصة بباعث شهود الصفات في طلب محو العلامات عند تجلي الذات".

■ قال ابن الفارض:

وعمتها بالفقر لكن بوصفه غنيت فألقت افتقاري وثروتي²⁰.

وقال:

وأخلص لها وأخلص بها عن رعونة اف تقارك من أعمال بر تركت²¹.

وقال الهبطي: "فقلت: إلهي! ما باب مناجاتك؟ قال: يا عبدي! رؤية الفقير لاختراعي من كوة الفقر الاكتسابي".

■ قال ابن الفارض:

وإن نطقْتُ كنتُ المناجي كذاكَ إن قصصت حديثاً إنما هي قصتي

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
 فإن لم يجوز رؤية اثنين واحدا حجاك ولم يثبت لبعث تثبت
 سأحلو إشارات عليك خفية بها كعبارات لديك جليلة
 وأعرب عنها مغربا حيث لات حيد من لبس بتباني سماع ورؤية
 وأثبت بالبرهان قولي ضاربا مثال محق والحقيقة عمدتي
 بمتبوعة بنبيك في الصرع غيرها على فمها في مسها حيث جنت
 ومن لغة تبدو بغير لسانها عليه براهين الأدلة صحت²².

ومثوره عند الهبطي: "فقلت: إلهي! ما باب مناجاتك؟ قال: يا عبي! رؤية الفقير لاختراعي من كوة الفقر الاكتسابي. فنظرت، فإذا ذلك كذلك، فانطلقت عقدة لسان الجنان، وارتسل فيها للمناجاة من ميدان، فاستأذنته أن أترجم عن شيء من ذلك للإخوان، ليكون لهم باعثا إلى مقام الإحسان، فأذن لي إظهارا لمنته عليّ وعليهم، فله الحمد الذاتي والصفاتي والفعلي".

■ قال ابن الفارض:

ولست ملوما أن أبث مواهبي وأمنح أتباعي جزيل عطيتي²³.

وقال الهبطي: "... فاستأذنته أن أترجم عن شيء من ذلك للإخوان...".

■ قال ابن الفارض:

وليلي فيها كلها سحر إذا سرى لي منها فيه عرف نسيمة²⁴.

وقال الهبطي: "فلما هبّ علي نسيم...".

■ قال ابن الفارض:

فبالنفس أشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهتت²⁵.

وقال الهبطي: "وأعكس قوى النفس إلى الروح ... فشاهدت ...".

■ قال ابن الفارض:

ويثبت نفي الالتباس تطابق الـ مثالين بالخمس الحواس المبينة

وبين يدي مرماي دونك سر ما تلقتة منها النفس سرا فألقت²⁶.

وقال الهبطي: "... أعكس قوى الحواس إلى النفس ... وأعكس قوى الروح إلى السر ...".

■ قال ابن الفارض:

يشاهدها فكري بطرف تخيلي ويسمعها ذكرى بسمع فطنتي

ويحضرها للنفس وهمي تصور فيحسبها في الحس فهمي نديمي²⁷.

وقال الهبطي: "فشاهدت سريان سر الصفات الأزلية في جميع الموجودات ...".

■ قال ابن الفارض:

وإسراء سري عن خصوص حقيقي إلى كسيري إلى عموم الشريعة²⁸.

وقال الهبطي: "... سريان سر الصفات ...".

■ قال ابن الفارض:

إلى أن بدا مني لعيني بارق وبان سنا فجري وبانت دجنتي²⁹.

وقال الهبطي: "وشاهدت سنا الحضرة القدسية".

■ قال ابن الفارض:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرُّ أرقُّ من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرة أملتها فعدوت معروفًا وكنت منكرا

فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا

فأدر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصورا³⁰.

وهذا الكلام له صدهاء في مقدمة "المناجاة"، كما تدل على ذلك العبارات الآتية: "هَبَّ عَلَى نَسِيمٍ مِنْ خِزَانَةِ الْفَضْلِ"، "فشاهدت سريان سر الصفات الأزلية في جميع الموجودات"، "فانطلقت عقدهُ لسان الجنان".

المطلب الثالث: وصف النسخة المخطوطة

اعتمدت على نسخة مخطوطة، محفوظة في المكتبة الوطنية ("الخزانة العامة" سابقا) بالرباط، مسجلة تحت رقم "2855د"، ضمن مجموع، من الصفحة 134 إلى 137.

مكتوبة بخط مغربي مجوهر، لا بأس به، مع استعمال الحمر لرووس الفقر، دون ذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

مقياسها 13.5×19 سم.

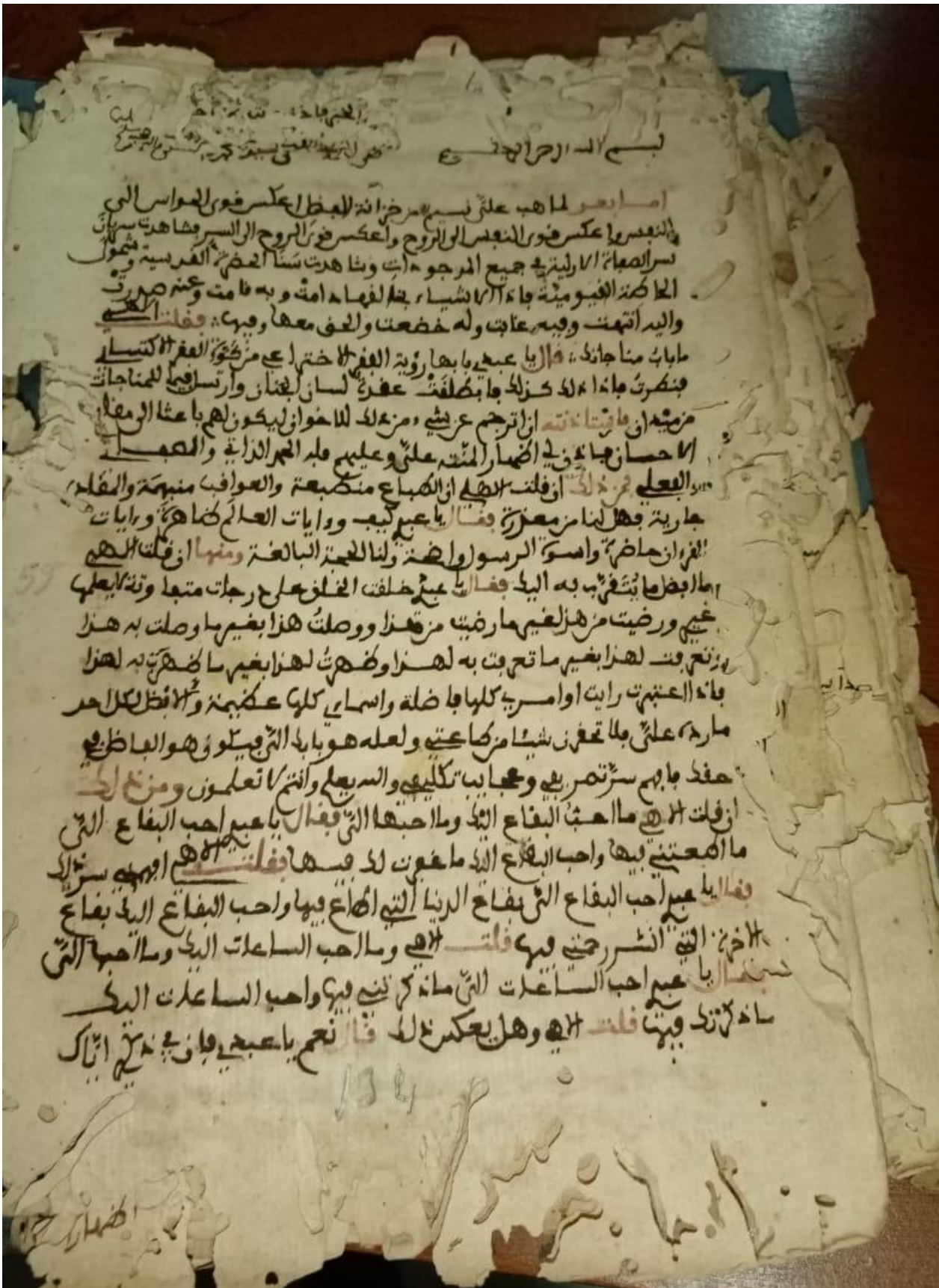
مسطرتها: 25س.

وقد نالت منها الخروم كثيرا، وبدأت أوراقها في التلاشي، مما أتى على كثير من الكلمات والحروف، التي استبنتها بعُسْرٍ، وقد كان السياق العام للكلام رائداً لي في هذه الاستبانة.

هذا، وقد رمزت بالحرف "ص" إلى النسخة المعتمدة، فهي الأصل، ما دام العثور على نسخة أخرى متعدداً وعزيزا لحد الآن.

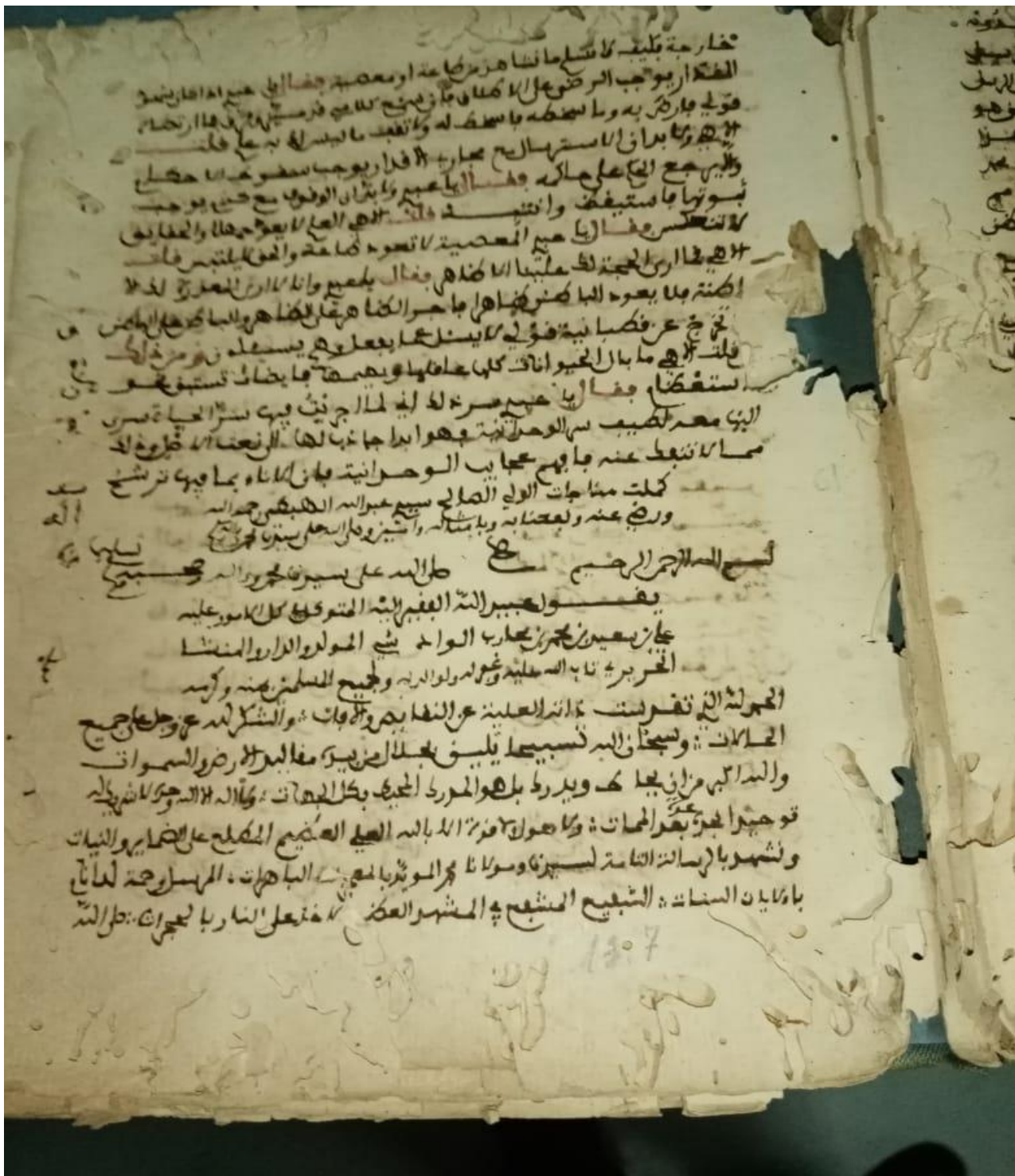
كما أنني وثقت الآيات القرآنية بوضعها في قوسين مرتعين داخل المتن.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.



الصفحة الأولى من مخطوطة "المناجاة"

(المكتبة الوطنية بالرباط، رقم "2855د")



الصفحة الأخيرة من مخطوطة "المناجاة"

(المكتبة الوطنية بالرباط، رقم "2855د")

المُتَن المحقَّق

بسم الله الرحمن الرحيم، وصَلَّى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه، وسلَّم تسليمًا.

أما بعد، لما 31 هبَّ علي نسيئٌ من خزانة الفضل، أعكس قوى الحواس إلى النفس، وأعكس قوى النفس إلى الروح، وأعكس قوى الروح إلى السر، فشاهدتُ سَرَيَانَ سِرِّ الصفات³² الأزلية في جميع الموجودات، وشاهدتُ سنا الحضرة القدسية، وشمول الإحاطة³³ القيومية، فإذا الأشياء بخالقها دامت، وبه قامت، وعنه صدرت، وإليه انتهت، وفيه غابت، وله خضعت، والحقُّ معها وفيها، فقلت: إلهي ما باب مناجاتك؟ قال: يا عبدي! رؤيَةُ الفقير لاختراعي من كُوءِ الفقر الاكتسابي.

فنظرتُ، فإذا ذلك كذلك، فانطلقتُ عقدُهُ لسان الجنان، وارتسل فيها للمناجاة من ميدان، فاستأذنتُهُ أن أترجم عن شيء من ذلك للإخوان، ليكون لهم باعثًا إلى مقام الإحسان، فأذن لي إظهاراً لمتته عليّ وعليهم، فله الحمد الذاتي، والصفاتي، والفعلية.

فمن ذلك أن قلتُ: إلهي! إن الطباع منطبعة، والعواقب منبهة، والمقادير جارية، فهل لنا من معذرة؟

فقال: يا عبدي! كيف وآياتُ العالم ظاهرة، وآياتُ القرآن حاضرة، وأسوة الرسول واضحة، ولنا الحجة البالغة.

ومنها أن قلتُ: إلهي! ما أفضل ما يُتَقَرَّب به إليك؟

فقال: يا عبدي! خلقتُ الخلقَ على درجات متفاوتة، لا يعلمها غيري³⁴، ورضيتُ من هذا غير ما رضيتُ من هذا، ووصلتُ هذا بغير ما وصلتُ به هذا، وتعرفتُ لهذا بغير ما تعرفتُ به لهذا، وظهرتُ لهذا بغير ما ظهرتُ به لهذا. فإذا اعتبرت، رأيتُ أوامري كُلُّها فاضلةً، وأسمائي كلها عظيمة. والأفضلُ لأحدٍ مَرَدُّهُ إِلَيَّ، فلا تحقرنَّ شيئاً من طاعتي، ولعله هو بابك إليّ، فيكون هو الفاضل في حقك. فافهم سِرَّ تصريفي، وعجائب تكليفي، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: 217، 232، آل عمران: 66، النور: 19].

ومن ذلك أن قلتُ: إلهي! ما أحبُّ البقاع إليك؟ وما أحبُّها إليّ؟

فقال: يا عبدي! أحبُّ البقاع إليّ ما أطعنتني فيها، وأحبُّ البقاع إليك ما غفرتُ لك فيها.

فقلتُ: إلهي! أفهمني سِرَّ ذلك!

فقال: يا عبدي! أحبُّ البقاع إليّ بقاع الدنيا التي أطاع فيها، وأحبُّ البقاع إليك بقاع الآخرة التي أنشُرَ رحمتي فيها.

قلت: إلهي! وما أحبُّ الساعات إليك؟ وما أحبُّها إليّ؟

قال: يا عبدي! أحب الساعات إلي ما ذكرتني فيها، وأحب الساعات إليك ما ذكرتك فيها.

قلت: إلهي! وهل يُعكس ذلك؟

قال: نعم يا عبدي! فإن في ذكرى إياك إظهاراً لإلهيتي، وفيها عزتي. وفي ذكرك إياي إظهار عبوديتك، وفيها

عزتك، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء: 84].

وقلت: إلهي! وما أحب الحالات إليك؟ وما أحبها إلي؟

فقال: يا عبدي! أحبها إلي ما تبرأت من حولك وقوتك فيها، وأحبها إليك ما برأتك من حولك وقوتك فيها،

فافهم! وفي استعن!

ومن ذلك أن قلت: إلهي! وما أفضل الصلاة بيننا وبينك؟

فقال: يا عبدي! فإن فضيلة الشيء بكماله، وكماله بمحيته على المراد منه، فإذا انكشف لك سر ذلك رأيت أن

أفضل الصلاة ما وافقت مرادي من صاحبها، وليس علم ذلك إلا لي. فربما ارتضيت منك مع نفس صلبة، وأرضى منك

من نفس آخر صلبة أخرى. فطوبى لمن أجرته على سبيل الموافقة، فافهم سري، ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ [هود: 88].

ومن ذلك أن قلت: إلهي! وهل للعامة مناجاة تخصهم؟

قال: نعم يا عبدي! فإن للعامة مناجاة، وللخاصة مناجاة، وللخاصة الخاصة مناجاة. فمناجاة العامة باللسان،

في طلب العفو والغفران، من وراء حجب الأكوان. ومناجاة الخاصة بالأفكار، في طلب الأسرار، عند رُفوع الأستار.

ومناجاة خاصة الخاصة بباعث شهود الصفات، في طلب محو العلامات³⁵، عند تجلي الذات، فلا تزال مناجاتهم

تحدوهم حتى تكون منهم معهم، ﴿والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: 19].

ومن ذلك أن قلت: إلهي! ما بال حضرتك أشرف الحضرات، وحضرة الدنيا أوضع الحضرات، وقلوب حضرتك

قليلة، وقلوب حضرة الدنيا كثيرة؟

قال: يا عبدي! فإن ذلك ليسر المجانسة. فإن حضرتي عزيزة، لا تأويها إلا قلوب العزيزة، والعزيز عزيز، وحضرة

الدنيا خسيصة، لا تأويها إلا القلوب الخسيصة. والخسيس في هذا كثير، ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ [سبأ: 13].

ومن ذلك أن قلت: إلهي! وما بال الفكرة في شأنك ثقلية، وفي شأن الدنيا خفيفة، وفي شأن الآخرة بين ذلك؟

وقال: يا عبدي! شأني حق محض، والحق لا يكون على غير أهله إلا ثقيلًا، وشأن الدنيا باطل محض، والباطل

لا يكون على أهله إلا خفيفًا، وليس شأن الآخرة حق محض ولا باطل محض، ولذلك كانت متوسطّة.

ومن ذلك أن قلتُ: إلهي! ما سبيل الدنيا؟ وما سبيل الآخرة؟ وما سبيل حضرتك؟

قال: يا عبدي! سبيل الدنيا شرع حاصل وأمير عادل، وسبيل الآخرة شرع قائم وحبر عالم، وسبيل حضرتي شرع صافي وشيخ وافي.

قلت: إلهي! وهلْ لَآكَفَانَا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ الْكِتَابُ دُونَ اعْتِبَارِ الْأَشْخَاصِ؟

فقال: لو اقتضت الحكمة ذلك، لكنك أنزلت الكتاب من السماء إلى الأرض، فيصبح بموضع من المواضع، فيجدونه الخلق المنزول عليهم، فيقرؤونه، فيفهمونه، ويعملون به، دون واسطة الرسل. وإنما اقتضت الحكمة إرسال الرسل من الملائكة إلى الرسل من الناس، وإرسال الرسل من الناس إلى أمهم، ليشاهدوهم بالحواس الظاهرة، ويسهل عليهم الاقتداء بمن هو مثلهم. فذلك حكمتي البالغة، وحجتي الواضحة، وسنتي الثابتة. ولا يزال³⁶ أهل هذا المقام قائمين³⁷ به إلى يوم القيامة، إلا أنه كان الأنبياء هبة، ولعلماء الأمة محمد وراثته.

قلتُ: إلهي، فما بال المنكرين عليهم؟

فقال: يا عبدي! تلك أيضا سنة ماضية في الأمة السالفة، وهي كذلك إلى يوم القيامة باقية، فريق في جنة التصديق وحسن الظن، وفريق في سعي التنكير وسوء الظن، ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْ أَغْلَانَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا﴾ [الكهف: 28].

ومن ذلك أن قلتُ: إلهي! وهل زاحمك أحد في قَدْرِكَ؟ وهل يزاحمك فتقهره وتغلبه؟

فقال: يا عبدي! ما زاحمني أحد في قَدْرِي، ولا يزاحمني، إذ لو زُوِّحْتُ بمقدار ذَرَّةٍ لكنت في ذلك مغلوبا، ولكن قَدْرِي سائق الخلق إلى³⁹ قَدْرِي، فما كان ولا يكون سوى قَدْرِي: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: 11]. فإشارتي بهذا لجميع ما بين يدي من الموجود المحدث، فلا حركة، ولا خطرة، ولا نَفْس، ولا هاجس، إلّا والقَدْرُ أجراه في قَنَاتِهِ.

ومن ذلك أن قلتُ: إلهي! ما العلم؟ وما العمل؟ وما الحال؟

فقال: يا عبدي! العلم هو ما يُشْهَدُكَ إِبَاي فِي كُلِّ مَا وَقَعْتَ عَلَيْهِ بِصِيرَتِكَ وَبَصَرِكَ، ومعته، وقبله، وبعده، وظهر معه المحبوب في سائر الحجب: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]. وأما العمل، فهو التَّبَرُّيُّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، حتى تعمل العمل بيدي باطنا، وأعمله أنا بيدك ظاهرا: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]. وأما الحال، فهو على مقتضى العلم والعمل، فمن شاهديني في الموجودات، فحاله التنزيه، ومن شاهديني معها، فحاله التعظيم، ومن شاهدها عني، فحاله التمجيد، ومن شاهدها بي، فحاله اللطف، ومنشاهدها لي، فحاله الافتقار، ومن شاهدها فيّ، فحاله الفناء. فإن الحال

على حسب الشهود، والشهود على التحلي، والتحلي على مقتضى المشيئة: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة: 1-2].

ومن ذلك أن قلت: إلهي! إن كانت مقاديرك في الخلق جارية، وليس خطرةً منها خارجة، فكيف لا تسلم ما نشاهد من طاعة أو معصية؟

فقال: يا عبدي! إذا كان شهود المقدار يوجب الرضى على الإطلاق، فإن سمع كلامي قد ميز وفرق فما ارتضاه قولي فأرض به، وما سخطه فاسخط له: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ [الإسراء: 36].

قلت: إلهي! ولا بد أن الاسترسال مع مجاري الأقدار، يوجب سقوط الأحكام، وإلا يرجع الحكم على حاكمه!

فقال: يا عبدي! ولا بد أن الوقوف مع كلام يوجب ثبوتها، فاستيقظ! وانتبه!

قلت: إلهي! العلم لا يُعدُّ جهلاً، والحقائق لا تنعكس.

فقال: يا عبدي! المعصية لا تعود طاعة، والحق لا يلتبس.

قلت: إلهي! فما أرى الحجة لك علينا إلا ظاهرة⁴⁰!

فقال: يا عبدي! وأنا لا أرى المَعْدرة لك إلا باطنة، فلا يعود الباطن ظاهراً، فاجرِ الظاهر على الظاهر، والباطن

على الباطن، لا⁴¹ تخرج عن قطبانية قولي: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: 23].

ومن ذلك أن قلت: إلهي! ما بال الحيوانات كلها؛ عاقلها وبهيها؛ فائضات⁴²: تستبق نحو الاستعظام؟

فقال: يا عبدي! سرُّ ذلك أني لما أجريت فيها سرَّ الحياة سرى إليها معه لطيف سرِّ الوجدانية، فهو أبداً جاذبٌ

لها إلى نعت الأصل، وذلك مما لا تنفك عنه. فافهم عجائب الوجدانية؛ فإن "الإناء بما فيها ترشع"⁴³!

كملتُ مناجاةَ الوليِّ الصالح سيدي عبد الله الهبطي، رحمه الله، ورضي عنه، ونفعنا به، وبأمثاله، آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

التهميش:

- ¹ - انظر تفصيل ترجمته في مقدمة تحقيقنا لرسائله التي جمعناها تحت عنوان "رسائل التوحيد والهيللة"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1423 / 2002، ص. 9 - 15.
- ² - دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لحمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977/1397، ص. 8، ممتع الأسماع في الجزولي والتبائع وما لهما من الأتباع لحمد المهدي الفاسي، تحقيق عبد الحي العمروي، وعبد الكريم مراد، سلسلة "من كتب التراث"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1415 / 1994، ص. 89.
- ³ - ممتع الأسماع، ص. 89.
- ⁴ - الرسالة اللدنية لأبي حامد الغزالي، ضمن المجموعة الثالثة من رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1994/1414، ص. 70.
- ⁵ - المصدر نفسه، ص. 71.
- ⁶ - المصدر والصفحة نفسهما.
- ⁷ - الرسالة الأولى ضمن "رسائل التوحيد والهيللة"، تحقيق خالد زُهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2002، ص. 26.
- ⁸ - يقول عبد الله الهبطي: "وجب على كل من يفتح الله له في فهم معناها، أن يبذل مجهوده في إيلاخ ذلك للخاص والعام من الأمة المحمدية، وقد فتح لي في شيء من معناها والحمد لله" (الرسالة السادسة من "رسائل التوحيد والهيللة"، ص. 79). ويذكر أبو حامد الغزالي، أن حصول العلم اللدني يكون بثلاثة أوجه: أحدها: تحصيل العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها، والثاني: الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة، والثالث: التفكير (انظر الرسالة اللدنية، ص. 73-74). ولا جرم أن عبد الله الهبطي حصّل العلوم العقلية والنقلية المهيمنة على الحقل الثقافي في عصره، وأخذ الحظ الوافر من أغلبها، ولم يأل جهداً في تبليغها. وكان شيخاً زاهداً صوفياً صاحب طريقة مبناه على الرياضة الروحية والمراقبة القلبية، وكان كثير التفكير في التوحيد والهيللة، كما تنبئ بذلك رسائله وكتبه ومنظوماته العقدية، بل عدّ ذلك هو مسعى الصراط المستقيم، فقد قال في وصية له: "فاعلم؛ أيها الأخ الكريم؛ أن الصراط المستقيم هو استدامة الذكر والتعلّم والتعليم، وبذلك نال وصية الله لنا، وللذين من قبلنا، حيث قال: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ [النساء: 131]. وكذلك فلتعلم أن أبلغ المواعظ أن تستحضر في قلبك دائماً الله سبحانه، فإن أنجح أسباب الرزق تقوى الله، والتوكل عليه" (الرسالة العاشرة من "رسائل التوحيد والهيللة"، ص. 135).
- ⁹ - يقول: "إن تفاوت الرجال بقدر العقول، وتفاوت العقول بقدر المهم، وتفاوت المهم بقدر المهتم به" (الرسالة الثالثة ضمن "رسائل التوحيد والهيللة"، ص. 56، وانظر أيضاً الرسالة الأولى، ص. 26 - 30، والرسالة الثالثة، ص. 56، ضمن الكتاب نفسه).
- ¹⁰ - ذكرنا بعض تلاميذه ومريديه لدى التعريف به في تقديمنا لـ "رسائل التوحيد والهيللة".
- ¹¹ - دوحة الناشر، ص. 13، ممتع الأسماع، ص. 89.
- ¹² - كما فصل في منظومته الموسومة بـ "الألفية السننية في تنبيه الخاصة والعام على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية".
- ¹³ - مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب) لأبي حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الحد، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء - دار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 1429 / 2008، ص. 81، ممتع الأسماع، ص. 89.
- ¹⁴ - دوحة الناشر، ص. 8.
- ¹⁵ - مما يؤكد هذا، رسالته العرفانية الموسومة بـ "جواب عن سؤال يتعلق بشرح كلام الغزالي في القلب وحقيقته".
- ¹⁶ - دوحة الناشر، ص. 8، ممتع الأسماع، ص. 89.
- ¹⁷ - تعرف الثائية الكبرى لابن الفارض بـ "نظم السلوك"، وهي قصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها: 762 بيتاً (انظرها في ديوان ابن الفارض، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1410 / 1990، ص. 26 - 82).
- ¹⁸ - ديوان ابن الفارض، الثائية الكبرى، ص. 26.
- ¹⁹ - الثائية الكبرى، ص. 29.
- ²⁰ - المصدر السابق، ص. 39.
- ²¹ - المصدر السابق، ص. 40.

²²-المصدر السابق، ص. 42-43.

²³-المصدر السابق، ص. 82.

²⁴-المصدر السابق، ص. 53.

²⁵-المصدر السابق، ص. 55.

²⁶-المصدر السابق، ص. 56.

²⁷-المصدر السابق، ص. 56.

²⁸-المصدر السابق، ص. 59.

²⁹-المصدر السابق، ص. 65.

³⁰-ديوان ابن الفارض، قصيدة "لن ترى"، ص. 129.

³¹-الأصح أن يقال: "فلما"، إذ يجب دخول الفاء على جواب "أما بعد".

³²- ص: الصفاة.

³³-ص: الحاطة.

³⁴-ص: غيرها.

³⁵-ص: العلات.

³⁶-ص: لا يزالون.

³⁷-ص: قائمون.

³⁸- هل: أتت عليها الخروم في ص.

³⁹- إلى: أتت عليها الخروم في ص.

⁴⁰-ص: ظاهر.

⁴¹- لا: أتت عليها الخروم في ص.

⁴²- من "فاض الماء" إذا تَدَفَّقَ (لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، ط. 3، 1414 / 1994، مادة "فيض"، ج. 7، ص. 210) وفي كلام الهبطي مجاز، أي أسرعَتْ كأنها متدفقة كالماء.

⁴³- أصله: "كل إناء بما فيه ينضح"، وهو مثل سائر معناه أن الكلام صفةٌ للمتكلم حُسْنًا وقُبْحًا (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. 3، 1996/1417، الحديثان 810 و820، ص. 378 و380، الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث لأحمد بن عبد الكريم العامري الغزي، تصحيح بكر بن عبد الله أبو زيد، دار الراجعية، الرياض، ط. 1، 1412 / 1991، الحديث 285، ص. 69).

قائمة المصادر والمراجع:

1. التوحيد والهيلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1423 / 2002.

2. دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977/1397.

3. تمتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع لمحمد المهدي الفاسي، تحقيق عبد الحي العمروي، وعبد الكريم مراد، سلسلة "من كتب التراث"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1415 / 1994.

4. الرسالة اللدنية لأبي حامد الغزالي، ضمن المجموعة الثالثة من رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1414 / 1994.

5. الرسالة الأولى ضمن رسائل التوحيد والهيللة، تحقيق خالد زَهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2002.
6. الرسالة السادسة من "رسائل التوحيد والهيللة، تحقيق خالد زَهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2002.
7. الرسالة العاشرة من "رسائل التوحيد والهيللة، تحقيق خالد زَهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2002.
8. الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية..
9. مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب) لأبي حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجدة، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء—دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1429.
10. ديوان ابن الفارض، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990/1410.
11. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994/1414.
12. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1996/1417.
13. الجدة الحديث في بيان ما ليس بحديث لأحمد بن عبد الكريم العامري الغزي، تصحيح بكر بن عبد الله أبو زيد، دار الراية، الرياض، ط 1، 1991/1412.